الحلقة الثانية

ما النّاقد؟..

قراءة تأسيسيّة في نقد النّقد

إنّ من شأن سؤالنا الماهويّ عن النّاقد: ما النّاقد؟ أنّه سؤال يتعلّق، في الأساس، بهويّة الفاعل النّاقد خلال فعله النّقديّ الذي يمارس الآن -هنا، وما يمكن أن يكونه هذا الفاعل خلال فعله النّقديّ ذاته، وانطلاقاً من هذا الفعل، أو كما هو حال هذا الفاعل خلال فعله، وليس خارج إطار فعله.

على أنّ ما نعنيه بالهويّة هنا، الهويّة النّقديّة بوصفها هويّة نصيّة لهذا الفاعل؛ شكل وجوده النّصي أو اللّغويّ، في علاقته بشكل وجوده التّاريخيّ أو الخارج نصّي. وهذا يقتضي منّا الانطلاق في عمليّة الكشف عن هويّة هذا الفاعل من طبيعة فعله النّقديّ ذاته الذي يمارس، أي من طبيعة العلاقة التي تنشأ بينه كفاعل وما يفترض أنّه فاعل فيه، وأنّه فاعل به، وأنّه فاعل له أو لأجله، أي من شبكة العلاقات المتآينة أو المتزامنة التي يفترض أنّها تنشأ بينه كفاعل (قارئ) وما هو فاعل (قارئ) فيه، وما هو فاعل (قارئ) به، وما هو فاعل له أو لأجله، باعتبار أنّ كلّ فعل (أيّاً يكن نوعه) هو دوماً فعلٌ في شيءٍ ما (مادّة)، وكلّ فعلٍ في شيءٍ ما، هو، بالضّرورة، فعلٌ بشيءٍ آخر (بأداة)، وكلّ فعلٍ في شيءٍ، بشيءٍ، هو فعلٌ لأجل شيءٍ وفي سبيله، أو هكذا يفترض، وإلاّ مثّل ضرباً من العبث.

ويمكننا أن نطلق على الشّيء بمفهومه الأوّل، الشّيءَ المادّةَ (النّصيّة)، وعلى الشّيء بمفهومه الثّاني، الشّيءَ الأداةَ (آلة القراءة النّقديّة المنهجيّة)، وعلى الشّيء بمفهومه الثّالث، الشّيءَ الغرَض أو الغاية أو المقصديّة الكامنة وراء عمليّة القراءة النّقديّة.

(٢-٢)

نّص الكتابة / القراءة

أمّا النّص بمفهومه الثّاني الذي نطلق عليه» نصّ الكتابة / القراءة» فمن شأنه أنّه– خلافاً للنّص بمفهومه الأوّل (نصّ الكاتب / القارئ)– منسوبٌ إلى الفعل، لا إلى الفاعل، وإلى الفعل المفتوح على مطلق الزّمان والمكان والفاعل، وليس إلى الفعَل المغلق علَى الزّمان والمكان والفاعل المحدودين والمحدّدين، أي أنّه منسوب إلى فعل الكتابة / القراءة السّابق في الوجود على وجود الفاعل: الكاتب / القارئ الإنّي، أي المتحقّق الآن– هنا لحظة ممارسته فعل الكتابة / القراءة الإبداعيّة.

وهذا يقتضي أنّه نص الوجود الكتابيّ / القرائيّ السّابق في الوجود على وجود كلّ موجود كاتب أو قارئ، إنّه نصّ الخبرة الكتابيّة / القرائيّة المجرَّبة سلفاً، لذلك فمن شأن هذا النّص أنّه يعمل على فصل العارف عن المعروف، أو لنقل: إنّه النّص الذي من شأنه أن يُبين (من البينونة) الكائن الكاتبَ / القارئَ عمّا به يكون ذاته الخاصّة أو الخالصة، أو عمّا به يكون هو هو، لا غيره.

لذلك نجد من سمات هذا النّص: الكليّة واللاّنهائيّة (اللاّتاريخانيّة)؛ بحكم أنّه يتألّف من عدد لا يحصى من النّصوص المكتوبة والمقروءة السّابقة في الوجود على وجود كلّ كاتب/ قارئ، وهذا يقتضي أنّه نصّ تؤلّفه أو تؤسّسه خبرة الكتابة / القراءة السّابقة واللاّحقة؛ السّابقة على كلّ عمليّة كتابة / قراءة لاحقة، ويسهم، في الآن نفسه، في التّأسيس لخبرتنا الكتابيّة / القرائيّة الحاليّة والمستقبليّة، لذلك فهو يتألّف من جملة النّصوص التي منها تتشكّل خبرتنا في الكتابة / القراءة عموما، أو قل: من جملة الأنظمة والأنساق التي تسكننا وتبرمج وعينا الكتابيّ / القرائيّ عموماً، وتمثّل خلفيّتنا الكتابيّة / القرائيّة على الدّوام.

لذلك فهو بمثابة نصّ الخبرة العامّة والخاصّة الذي يبني بجوانبه المختلفة ذاكرة الفاعل النّاص؛ كاتباً أو قارئاً، وبه تصاغ شخصيّته الكتابيّة / القرائيّة، ما يجعله قادراً على التّفاعل والعطاء، أو على التوقّع والمبادرة إلى الفعل المجسّد حضوره في فضائه، أو قل: إنّه هو وحده النّص الذي من شأنه أن يبني أو يصوغ أفق توقّع القارئ، ويمنحه القدرة على خوض أدوار اجتماعيّة تجاه الآخرين، ويمكّنه، في الوقت نفسه، من إنشاء شروطاً اجتماعيّةً جديدة (١). ويمكن النّظر إلى هذا النّص، في سياق علاقّته بباقي نُصوص الأدب التي تتفاعل معه، وتنبثق عنه، بوصفه نصّ الجذر (جذر الخطاب الأدبيّ والنّقديّ عموماً). والنّظر إلى النّص بمفهومه الثّالث (المكتوب / المقروء) المنبثق عنه والمتحوّل في إطاره، بوصفه نصّ الجذع (البارز على سطح أرض الأدب والنّقد عموماً). والنّظر إلى»نصّ الكاتب / القارئ»– المشار إليه آنفاً– بوصفه نصّ الثّمرة المرتبطة به والمتحوّلة عنه وبسببه، في الوقت نفسه (٢).

على أنّ من شأن هذا النّص الذي نسمّيه» نص الكتابة / القراءة» أنّه قد ينغلق على مكتوب / مقروء واحد محدّد، وعلى طريقة واحدة محدّدة في الكتابة / القراءة، فيصبح حيَنئذ بمثابة نصّ البرمجة المنهجيّة المغلقة الذي من شأنه أن يبرمجنا كقرّاء من داخلنا، وينظّم قراءتنا ويوجّهها باتجاه مقروءٍ محدّدٍ، ويفرض عليها شروط قراءته الجاهزة والمحدّدة سلفاً.

وينطبق هذا الوصف– فيما نعتقد– على نصّ الكتابة الشّعريّة الحداثيّة عند بعض شعراء الحداثة المعاصرين الذين التزموا طريقة واحدة محدّدةً في الكتابة لم يحيدوا عنها، كما ينطبق أيضاً على نصّ القراءة النّقديّة المنهجيّة أو المنهجة، أي الملتزمة منهجاً ما محدّداً من المناهج النّقديّة المعاصرة الشّائعة اليوم في السّاحة النّقديّة الأكاديميّة أو الجامعيّة، أي في بيئة النّقاد الأكاديميّين الذين يحرصون على الالتزام المنهجيّ في تحليلهم لنصوص الأدب ونقدها، لذلك رأينا تحوّل هذا النّص– عند بعض النّقاد– إلى نصّ برمجة داخليّة، أو إلى مجرّد خطاب سلطة يبرمج الكائن القارئ، ويفرض علّيه نسقً قراءته الجاهزة: نسق القراءة البنيويّة أو التفكيكيّة أو الأسلوبيّة أو النّصيّة أو سواها من مناهج التّحليل النقديّ المعاصرة (٣).

(٢-٣)

النّص المكتوب / المقروء

أمّا النّص بمفهومه الثّالث (المكتوب / المقروء) فهو النّص الذي يقع عليه فعل الكتابة / القراءة في لحظته الرّاهنة، أو في حضوره العينيّ المباشر، أو لنقل: إنّه النّص الذي يستهدفه النّاص الكاتب / القارئ بفعل الكتابة / القراءة، ويوقع عليه فعله الكاتب/ القارئ في لحظته الرّاهنة بصورة عمليّة مباشرة، لذلك فهو– بالنّسبة للنّاص الكاتب– النّصُّ الذي يتناصّ معه بشكل مباشر وضروريٍّ خلال عمليّة الكتابة، وهو– بالنّسبة للنّاص القارئ– النّصُّ الذي يقع بين يديه أثناء عمليّة القراءة النّقديّة، ويقع عليه فعل القراءة والتّأويل بصورة مباشرة، أو لنقل: إنّه النّص الذي يدخل معه النّاص القارئ في علاقة تفاعليّة حواريّة مباشرة.

وإذا سلّمنا بأنّه لا وجود للنّص– بأيٍّ من مفهوماته الثّلاثة السّابقة – إلاّ بوجود ما ينصصه، أي ما يجعل منه نصّاً، أو ما يبرز اختلافه بوصفه نصّاً، أي بوجود فعل الكتابة/ القراءة النّصيّة، وأنّ عمليّة كتابة النّص أو تأويله تبدأ أو تبدآن، بالأحرى، منذ أن يستحوذ الكاتب / القارئ على النّص، ويدخل في حوار مباشر معه، فإنّه يصبح من العسير علينا أن نتحدّث عن نصٍّ مكتوب خارجَ فعل الكتابة، وعن نصٍّ مقروءٍ خارجَ فعل القراءة الذي يقع عليه، لذلك فما نعنيه بالنّص المكتوب / المقروء هنا، هو النّص المتحقّق وجوده في عالم النّاص الكاتب / القارئ لحظة يكتب أو يقرأ، أو خلال فعل الكتابة / القراءة الذي ينجز الآن– هنا (٤).

-٣-

النّاقد والنّص:

د. عبد الواسع الحميري

وإذ قد حدّدنا ما نعنيه بهذه الأنواع من النّصوص، فإنّ السّؤال الذي علينا المبادرة إلى طرحه هنا:

لكن كيف يتحقّق حضور الكائن النّاص / القارئ في حضرة هذه النّصوص جميعاً؟ أو بالأحرى كيف تتحقّق كينونته في حضرتها جميعاً؟ بتعبير آخر: أين تكون (بمعنى تتحقّق) كينونة الكائن القارئ النّصيّة؟ وكيف تكون؟ أتكون في أفق تقاطع تلك النّصوص؛ اشتباكها وتداخل بعضها في بعض (قراءة كلّ نصّ من زاوية النّص الآخر)؟ أم تكون في أفق تمايز تلك النّصوص وانفصالها بعضها عن بعض (قراءة كلّ نصّ على حدة أو بمعزل عن النّص الآخر)؟ في أفق الاتّصال يكون أو تكون كينونته؟ أم في أفق الانفصال والعزلة؟ ومن ثمّ، كيف تشتبك هذه النّصوص في وعي القارئ النّاقد، كي تولد أو تتوالد عنها نصوصٌ نقديّةٌ جديدةٌ خاصّةٌ به ويكون من حقّه أن يدّعي نسبتها إليه، واختصاصها به، أو تبعيّتها له؟! بتعبير آخر، كيف تتحدّد علاقة الكائن النّاص القارئ بنصوصه الثّلاثة الكبرى الموضّحة هويّتها آنفاً، كي ينتج منها نصّاً نقديّاً جديداً خاصّاً به؟! ما الأسس التي نعتقد أنّها تقوم عليها تلك العلاقة كي يكون بمقدوره إنتاج نصّه النّقديّ الخاصّ؟! ماذا عليه أن يفعل كي يتمكّن من إنتاج المختلف من النّصوص النّقديّة؟ هل عليه أن يتماثل، أن يتطابق مع نصوص القراءة النّقديّة السّابقة السّاكنة فيه أو المسكون بها؟! أم عليه أن يختلف عن كلّ تلك النّصوص، وأن يخالفها؟! أم عليه أن يختار طريقاً وسطاً بين هذه وتلك؛ فلا يخالف أو يختلف بصورة نهائيّة أو مطلقة، ولا يتطابق أو يأتلف بصورة نهائيّة أو مطلقة، بل عليه أن يختار خطّاً وسطاً يكون فاصلاً واصلاً بين مطلق الاختلاف ومطلق الائتلاف؟!

بتعبير آخر، هل عليه أن يتطرّف، فينحاز إلى أحد تلك النّصوص المشار إليها دون الآخر؟ أم عليه أن يتوازن، فلا ينحاز إلى أيٍّ من تلك النّصوص منفردةً أو مفردة؟

(٣-١)

حتى نتمكّن من الإجابة عن هذا السّؤال المهمّ، يجب علينا أن نشير– بادئ ذي بدء– إلى أنّ الأصل في علاقة الأنا النّاصّة أو القارئة بنصّها القارئ ونصّها المقروء، أنّها علاقة وجود وإيجاد، أي علاقة محبّة وعشق؛ بحكم أنّها بهما تكون وتتكوّن، أو تنوجد وتوجد، وهذا بخلاف علاقتها بنصّ القراءة النّقديّة السّابق في الوجود على وجودها القرائيّ؛ إذ تبرز علاقتها بهذا النّص، بوصفها علاقة نفي وصراع، أي بوصفها علاقة محكومة برغبة التخلّص والانفلات من قبضة هذا النّص؛ فهي علاقة انفصال وبينونة، لا علاقة اتّصال وكينونة.

ما يصحّ معه وصف النّص الأوّل (نصّ القارئ) بكونه نصّ الكينونة المراد، ولكنّه غير المتحقّق. ووصف النّصّ الثّاني (نصّ القراءة) بأنّه نصّ الإرادة الجاهز الذي يجيّر إرادة القارئ لصالح نصّ آخر غير مراد، وقد تتحقّق خلاله إرادته بطريقة مخيّبة لآماله، ومن ثمّ، يمكن وصف هذا النّص، بكونه نصّ البينونةً / السّقوط، أي بكونه النّص الذي به أو خلاله يبين الكائن القارئ (من البينونة) عن ذاته الخاصّة أو الخالصة، ووصف النّص الثّالث (النّص المقروء) بأنّه نصّ الكون أو الكينونة الذي به يكون الكائن القارئ ذاته، أو هو هو، ولا يكون ذاتاً قارئةً أخرى، أو هكذا يفترض، وهو ما يضعنا في كلّ قراءة نقديّة نصيّة حقيقيّة في مواجهة ثلاثة نصوص هي بمثابة حقول دلاليّة كبرى:

١. نصٌّ يقبع في داخلنا، ويقمعنا من داخلنا، يبرمج وعينا وطرائق إدراكنا، لذلك فهو يحتلّ (منّا وفينا) موقع القيادة والسّيطرة خلال عمليّة النّصنصة والتّنصيص القرائيّ.

٢. ونصٌّ لا يزال يقع خارجنا (في العالم المرئيّ أو السّمعيّ) ولمّا يتحوّل بعدُ، ليصبح نصّاً داخليّاً. لذلك فهو لا يزال يحاول أن يفرض حضوره السّمعيّ أو البصريّ الآن– هنا، على وعينا، عبر إمكانات اللّغة الخاصّة به.

٣. ونصٌّ داخليٌّ ؟ خارجيّ، لا نزال مسكونين به، وساكنين فيه، أو قل: لا نزال نتبادل السّكنى وإيّاه؛ فهو داخليٌّ كهمٍّ، أو كإرادة ساعية للتحقّق، وهو خارجيٌّ، بحكم أنّه لا يزال غائباً عن وعينا أو عنً وسائل إدراكنا. ومن ثمّ، فنحن في مواجهة نصّ مدمج بكلّ أنواع السّلط العلياَ التي لا تزال تفرض شروطها علينا، وتقمعنا من داخلنا، موجّهةً إرادة القراءة فينا باتّجاهات محدّدة سلفاً، قد يكون لها صلة بمقروئنا الحالي، وقد لا يكون لها صلة. ونصّ آخر مجرّد من كلّ أنواع السّلط العلياَ أو المتعالية، ولا يمتلك من إمكانات السّلطة والسّيطرة سوى إمكانات الحضور الخارجيّ الماديّ: السّمعيّ أو البصريّ؛ وهي في جملتها، إمكاناتٌ لمّا تزل– على الأقلّ لحظة التّلقي الأوّليّ المباشر له– إمكانات هامشيّة غير فاعلة، ولمّا تغدو بعدُ إمكانات داخليّة متمكّنة فينا، يمكن أنً تمارس فعلها فينا من الدّاخل، ومن ثمّ، فنحن في مواجهة نصٍّ هو الذي ينصصنا، هو الذي يقرأنا (=هو الذي يملكنا)، أو لنقل: هو الذي يبرمجنا، ويوجّه قراءتنا من الدّاخل باتّجاه مقروء محدّد، قد يكون له وجود في نصّنا المقروء الآن– هنا، وقد لا يكون له وجود، ويمكننا أن نطلق على هذا النّص «نصّ البرمجة القرائيّة». ونصّ آخر نحاول نحن أن ننصصه، وأن ننصص ذواتنا المبرمجة من خلاله، ويمكننا أن نطلق عليه» نصّ القراءة النقديّة الممكنة»، أو» نصّ الحضور الممكن: الآن – هنا حضوراً عينيّاً مباشراً في حضرة أنانا القارئة.

لذلك فشتّان بين نصٍّ هو الذي ينصصنا أو يقرؤنا، وينصص قراءتنا، في الآن نفسه(٥) ونصٍّ نحن الذين ننصصه، أو نحاول أن نقرأه، فلأيّهما سنستجيب إذن يا ترى؟! وأيّهما سيكون الأقوى على التأثير فينا، أو الأقدر بالأحرى على فرض شروط حضوره علينا دون الآخر؟ وماذا علينا أن نفعل– كقرّاء– كي يكون بمقدورنا التّوازن وإقامة نوع من التّواصل والحوار بين تلك النّصوص الثّلاثة مجتمعةً، والاستجابة الايجابيّة لشروط الكلّ دون البعض؟ أو لنقل كي يكون بمقدورنا الانفتاح على الكلّ بشروط الكلّ، وبما يحقّق تجاوز وضعنا الكينونيّ في إطار الكلّ، أي بما يفكّ وضعنا في إطار الكلّ سعياً إلى إعادة بناء الكلّ بطريقة كليّة مركّبة نجسّد– خلالها– اختلاف وتفرّد الكينونة النّصيّة المركبة والمركّبة في آن معاً.

أعتقد أنّه ما من طريق أمام النّاص القارئ حتى يكون بمقدوره إنتاج المختلف من نصوص القراءة النقديّة إلاّ طريقٌ واحدٌ: أن يتناصّ مع جميع تلك النّصوص مجتمعةً، وهذا يقتضي منه النّظر إلى كلّ نصّ من تلك النّصوص من زاوية النّص الآخر، وهذا يتطلّب منه أن يتداخل في تلك النّصوص جميعاً، وأن يتخارج منها أو عنها، في الوقت نفسه، أو أن ينفتح عليها، وينغلق دونها، في الوقت نفسه، أو قل: ينفتح على بعضها من زاوية بعضها الآخر، فيصغي للكلام الذي يتكلّمه النّص المقروء– الآن– هنا– مثلاً – من زاوية كلام نصّ القراءة السّابق، ليصغي، في الوقت عينه، لكلام النّص المقروء، ولكلام نصّ القراءة السّابق، انطلاقاً من كلام نصّه القارئ، وهو ما يحتّم على النّاص القارئ الدّخول في علاقة حواريّةٍ تفاعليّةٍ (جدليّةٍ) مع تلك النّصوص جميعا، في وقت واحد (٦).

(٣-٢)

لكن كيف يكون بمقدور الكائن النّاص/ القارئ الحضور في حضرة هذه النّصوص جميعاً، والدّخول في علاقة تفاعليّة حواريّة مباشرة معها جميعا؟!

وحتى نتمكّن من الإجابة عن هذا التّساؤل نقول: نعتقد أنّه ما من طريق إلى التّحقّق في أفق هذه النّصوص جميعاً والتّفاعل معها جميعاً إلا طريق واحد وحيد: سلوك طريق (التّجريب النّقديّ). وما نعنيه بالتّجريب النّقديّ هنا ليس التّجريب بمفهومه العام أو الشّائع؛ الآليّ أو التّقليديّ الذي ينحصر خلاله جهد المجرّب ونشاطه في اتّجاه واحد، ووفق شروط محدّدة سلفاً؛ وإنّما نعني التّجريب بمعناه الدّقيق والعميق؛ الكليّ والشّموليّ؛ أعني تجريب النّقد بمستوييه؛ السّطحيّ والعميق: تجريب» نقد» النّصوص، من جهة، وتجريب»نقد نقد» النّصوص، من جهة ثانية، ووفق شروط التّجريب المعتبرة في كليهما.

على أنّ التّجريب– بمستوييه السّطحي والعميق– لا يكون– في اعتقادنا– إلاّ وفق منظور ديناميّ خاصّ بالكائن المجرّب، أي وفق جهاز أدواتي مفهوماتي، يجب أن يكون قد بناه الكائن المجرّب خلال مسيرة حياته النقديّة التّجريبيّة السّابقة، أعني خلال خبرته التجريبيّة السّابقة التي بناها لنفسه، فصارت تشكّل، بالنّسبة له، منظوراً خاصّاً به؛ جهازاً أدواتيّاً مفهوماتيّاً يستند إليه خلال عمليّة التّجريب.

وهذا يقتضي أنّ فعل التّجريب النّقديّ الحقيقيّ مشروط بحضور الكائن المجرّب حضوراً عينيّاً مباشراً، في حضرة (النّص) المجرَّب قراءته، وتجريب قراءته وفق شروط التّجريب الخاصّة والعامّة، في آنٍ معاً، أي وفق نظام (ديناميّ) للتّجريب النّقديّ، هو عبارة عن مزيج منً الخبرة النّقديّة الخاصّة والعامّة.

فالتّجريب النّقديّ إذن عبارة عن خبرة اتّصال مباشر بالنّص المنقود، أو لنقل: إنّها خبرة قرائيّة مشروطة بحضور القارئ / النّاقد المجرّب في حضرة ثلاثة نصوص على الأقلّ– يتمخّض عنها نصّ رابع هو نصّ الوجود النّقديّ الممكن– حضوراً عينيّاً مباشراً وقراءتها وفق شروط القراءة الخاصّة والعامّة في آن معاً، وهذا يقتضي أنّها خبرة قراءة مشروطة بحضور القارئ النّاقد حضوراً عينيّاً مباشراً في حضرة ثلاثة نصوص على الأقلّ:

١. في حضرة النّص المقروء: الآن– هنا.

٢. وفي حضرة نصّ القراءة النّقديّة السّابق في الوجود على وجود القارئ النّاقد الإنّي، أي المتحقّق الآن– هنا في لحظة القراءة النّقديّة، وهو النّص الذي يشكّل خلفيّة القراءة النّصيّة ونظامها.

٣. وفي حضرة نصّ القارئ الحلم الذي يحلم القارئ النّاقد أن يجسّد فيه أو خلاله طموحه في القراءة النّقديّة.

وهذا يقتضي أنّ التّجريب النّقديّ الحقيقيّ المنتِجَ للمعرفة النّقديّة الحقيقيّة بالنّصوص لا يقامٍ في الفراغ، ولا يُنطلَقُ فيه من منظورات نقديّة جاهزة (أكانت خاصّة بالنّاقد أم بغيره) إلاّ أن يكون الهدف منً العمليّة النّقديّة برمّتها: التّعليمَ أو مجرّدَ نقلِ المعرفة النّقديّة الجاهزة إلى الآخرين.

لذلك نقول: إنّ التّجربة، في أبسط معانيها، عبارة عن خبرة خاصّة بالأشياء التي نجرّبها، وهي خبرة نكتسبها خلال علاقتنا المباشرة الخاصّة والعامّة بتلك الأشياء، نبني نظامها الخاصّ، ونؤسّس خلالها لمنظورنا الخاصّ. وهو ما يتطلّب منّا القيام بعمليّة مراجعة دائمة لأدواتنا وإمكاناتنا (لجهازنا الأدواتي المفهوماتي المعرفيّ) كلّما شعرنا أنّه قد حصل تطوّر في دلالة تلك الأدوات والمفاهيم التي ينطوي عليها الحقل المعرفيّ لعملنا، أو أنّ أيّاً منها قد تعرّض لهزّات عنيفة أفقدته بعض خصائصه، أو أسقطت عنه بعض عناصره، أوً أضافَت إليه عناصر جديدةً لم تكن له من قبل، أعني كلّما شعرنا أنّه قد حصل تطوّر في بنيته؛ استخداما ودلالة.

وهذا يقتضي أنّ التّجريب النّقديّ الحقيقيّ المنتج للمعرفة النّقديّة الحقيقيّة بالنّص، لا يكون، في حدّه الأدنى والضّروريّ إلاّ:

١. بحضور مجرِّب (بصيغة اسم الفاعل) هو من يمارس فعل التّجريب النّقديّ الذي هو، في سياقنا هذا، القارئ النّاقد المستغرق بفعل القراءة النّقديّة.

٢. في حضرة مجرَّب (بصيغة اسم المفعول)؛ أعني في حضرة فعل التّجريب القرائيّ النقديّ نفسه بصورة فعليّة، بوصفه فعل انفتاح كلّيٍّ على كليّة العوالم النّصيّة المشار إليها آنفاً.

٣. وفي حضرة مجرَّب فيه (مادّة تجريب) ويتمثّل هذا الطّرف، بالنّسبة للقارئ النّاقد، في لغة النّصوص المجرّب قراءتها، أو في ملفوظاتها الواقعيّة والممكنة.

٤. وفي حضرة نظام التّجريب ذاته؛ تجريب القراءة النّقديّة التجريبيّة المتجسّد في نصّ القراءة السّابق في الوجود على وجود القارئ المجرّب.

٥. وفي حضرة مجرّب له أو لأجله، ونعني بذلك مقصديّة القارئ المجرّب، بوصفه ما يهدف إليه النّاقد المجرّب من وراء عمليّة التّجريب النّقديّ برمّتها.

وهذا يقتضي القول: إنّ تجريب القراءة النّقديّة للنّص يقتضي الاتّصال المباشر بالنّص المقروء / المنقود، والنّظر إليه من ثلاث زوايا رئيسة:

١. من زاوية ما يكونه هذا النّص (المقروء) في ذاته أوّلا. وهذا يقتضي احترام النّص المنقود / المقروء في ذاته، والاعتراف بحقّه في الوجود، كما هو في ذاته، لا كما نحن، أو كما هو في (مرآة) نصوصنا القارئة التي منها ننطلق، وفي ضوئها نقرأ. ما يحتّم علينا محاورته والإصغاء لكلامه وما يقول، وفق نظام القول الدّاخليّ الخاصّ به، أو الذي ينطوي عليه هو نفسه، وتبادل الكلام معه، في الوقت نفسه، بصورة فوريّة ديمقراطيّة متوازنة.

٢. ومن زاوية ما يكونه هذا النّص (المقروء) في»نقد النّصوص» بوصفه نصّ التّبادل النّقديّ، أي كما هو في نصوص القراءة النّقديّة السّابقة في الوجود على وجودنا الإنّي (المتحقّق الآن– هنا لحظة انفتاحنا على النّص وقراءته).

٣. ومن زاوية ما يمكن أن يكونه هذا النّص (المقروء) في نصّ الوجود القرائيّ الممكن، أي كما هو في نصّ القارئ الحلم الذي يطمح أن تكونه قراءته النقديّة التي يؤسّس لها، ويطمع أن يجسّدها واقعاً معاشاً في حياته الثقافيّة المستقبليّة.

غير أنّ السّؤال الذي يجب علينا المبادرة إلى إعادة طرحه هنا تأكيداً لما سبق:

لكن ما الذي يجرّب القارئ النّاقد قراءته في الأصل؟ أو بالأحرى، ما الذي يستهدفه القارئ النّاقد بفعله النّقديّ التّجريبيّ؟ وكيف يجرّب؟!

وهنا نقول: إنّ ما يجرّب القارئ النّاقد، هو لا شيء سوى فعل القراءة النّقديّة ذاته؛ بوصفه فعلاً (لغويّاً) فاعلاً في نفسه، فعله فيما هو فعلٌ فيه (في النّص المقروء/ المنقود) وفيما هو فعلٌ به (في نصّ القراءة النقديّة السّابق في الوجود على وجوده الإنّيّ) وفيما هو فعلٌ له أو لأجله (في نصّنا القارئ الحلم).

على أنّه يمكننا، بعد هذا، أن نرصد ثلاث استراتيجيّات لتجريب القراءة النقديّة للنّص عموماً:

١. إستراتيجيّة تعتمد منطق الذّهاب ؟ إلى النّص (المقروء) وتجريب قراءته كما هو في ذاته، في حضوره العينيّ المباشر، أي دون تدخّل منّا، أو دون أن نخضعه لشروط قراءتنا الخاصّة، أو لتحقيق أيّة مقصديّة أخرى تتعلّق بنا أو تخصّنا، وإنْ كان هذا لا يمنع، أو يحول بالأحرى، دون خضوعنا وإيّاه لشروط قراءتنا ومقروءاتنا السّابقة التي يمليها أو يفرض منطقها وضعنا السّوسيو– ثقافيّ عموماً، أو ما نسمّيه بـ» نصّ القراءة / البرمجة الثقافيّة السّابق في الوجود على وجودنا القارئ.

٢. وإستراتيجيّة تعتمد منطق الإياب ؟ عن النّص (المقروء)، وتجريب قراءته، كما نحن الآن– هنا في حضورنا العينيّ المباشر، أي وفق شروطنا الخاصّة في القراءة، أو وفق شروط نصّنا القارئ، بوصفه نصّ القراءة الحلم الذي نتبادل السّكنى وإيّاه، ويحاول كلّ منّا فرض شروطه على الآخر.

٣. وإستراتيجيّة تعتمد منطق الذّهاب ؟ إلى النّص (المقروء) والإياب ؟ عنه، في الآن ذاته، لتجريب قراءته، كما هو في ذاته، وكما نحن في ذاتنا، في الآن نفسه.

والإستراتيجيّة الأولى في تجريب فعل قراءة النّص تجسّد نسق التّبعيّة والسّقوط؛ في عالم النّص المقروء، وتجريب قراءته كما هو في ذاته، وتجسّد الإستراتيجيّة الثّانية نسق التّعاليّ ؟ على النّص المقروء، وقراءته كما نحن في ذاتنا. في حين تجسّد الإستراتيجيّة الثّالثة نسق التفاعل والجدل ؟ مع النّص المقروء وقراءته كما هو، وكما نحن، في الآن ذاته.

ثلاثة آفاق لتجريب قراءة نصوص الكلام الحيّ إذن: أفق التّبعيّة والسّقوط في عالم التّجربة القرائيّة النقديّة، حيث غياب القارئ المجرّب، وتبعيّته لعناصر العالم النّصيّ التي يجرّب قراءتها، وأفق التّعالي على عالم التّجربة القرائيّة النقديّة، وأفق التفاعل والجدل مع عالم تلك التّجربة.

وإذا علم هذا، فإنّ السّؤال الذي علينا طرحه على تجربة النّقد العربيّ بمستوييه: النّظريّ والتّطبيقيّ هو:

هل انطوت تجربة النّقد العربيّ في عمومها، على مقوّمات التّجريب النّقديّ في حدّها الأدنى التي أشرنا إليها آنفا؟ هل توفّر في العنصر الأوّل، في الفاعل النّاقد في هذه التّجربة، شرط الفاعليّة؟ أعني شرط التّجريب النّقديّ الحقيقيّ القائم على الاتّصال الحيّ المباشر بما يفترض أنّه فاعلٌ فيه، وأنّه فاعلٌ به، وأنّه فاعلٌ له أو لأجله؟ وهل توفّر في فعله النّقديّ التّجريبيّ– من ثمّ– شرط الفعليّة (أعني شرط التّأثّر وإحداث الأثر في المادّة النّصيّة المجرّب فيها وعليها، على الأقلّ؟!

١ (ينظر: مدخل إلى علم النّص: ٩٧).

٢ ينظر:نفسه.

٣ ينظر: الحميريّ (عبد الواسع): في الطّريق إلى النّص، مرجع سابق: ٨٥ وما بعدها.

٤) ينظر: آفاق التناصيّة، تر: محمّد خير البقاعي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة: ١٩٩٨م: ١٦٠.

٥ ومن شأن هذا النّص – كما يظهر من وصفنا السّابق – أنّه يجسّد – على الدّوام – حضور الوحدة والهويّة، ونعني بالوحدة هنا (وحدة الفاعل النّاص / القارئ)، من جهة، ووحدة النّص (المقروء / المنقود)، من جهة ثانية، وتعني وحدة النّص– حسب سقراط– أن يكون الكلام مؤلّفاً مثل الكائن الحيّ (ينظر: نقد استجابة القارئ: ٢١٤)، وحسب أرسطو فإنّ الفنون كلّها يجب أن تحاكي الكلّ، أي الوحدة البنيويّة للأجزاء، فإذا ما استلّ أو أزيح أحد هذه الأجزاء فسوف يتفكّك هذا الكل، ويقع فيه الاضطراب لا محالة .

أمّا الهويّة فتمثّل الثّابت في شخصيّة النّاص القارئ، وهي عبارة عن تجريد ثابت من سلسلة لا متناهية من التحوّلات القرائيّة النّصيّة التي تحدث خلال مسيرة تفاعل النّاص القارئ (الفرد) بأسرها (نفسه: ٢١٧). حيث نفترض وجود موضوعة الهويّة الثّابتة هذه في الكائن القارئ على نحو يمكّننا من القبض على ماهية (شخصيّة) ثابتة، تخترق عدداً ضخماً من اختيارات الأنا التي تشكّل الكائن القارئ الماثل أماميّ، والمتغيّر والمختلف أبداً، والمتواصل أبداً مع ما حدث من قبل، ويمكنني أن أصل من خلال موضوعة مركزيّة موحّدة إلى وحدة تنتظم سلسلةً من الخيارات تسمّي هذا الكائن النّاقد، كذلك يمكنني أن أصل إلى هويّة تخصّ ذاتاً (قارئة) معيّنةً من خلال موضوعة هويّة مركزيّة (نفسه: ٢١٩).

٦ نقول هذا انطلاقاً من أنّ ثمّة نوعين من التّناصيّة؛ فهناك تناصيّة قرائيّة، وهناك تناصيّة كتابيّة، ومن شأن التّناصيّة القرائيّة– موضوعة همّنا هنا– أنّها منسوبةٌ إلى الفعل القارئ أو إلى فعل القراءة (النقديّة) الذي ننهض به نحن القرّاء / النّقاد، لذلك فهي تتحقّق أو تتكشّف في أفق الفعل القرائيّ النقديّ نفسه، بوصفه فعلاً ينصص / يظهر اختلاف القارئ النّاقد وما يقرأ من نصوص، إضافةً إلى اختلاف قراءته النّقديّة ذاتها. لذلك فإنّ من شأن هذه النّصيّة القرائيّة أنّها تنصص اختلاف النّاص القارئ بما ينطوي عليه من نصوص مقروءة، وما يتمثّله من نظام / أنظمة قراءة سابقة، وهذا يقتضي أنّ أفق كلّ قراءة نصيّة هو– في الأصل– أفق توتّرٍ وصراع، على الأقلّ، بين ثلاثة نصوص على الأقلّ، هي تلك النّصوص التي حاولنا إيضاح هويّتها سابقاً.

حياة طارئة

عبدالمجيد التركي

صعود وهبوط.. بكاءٌ وفرح.. وصالٌ وبعاد.. متى نستقر!!

الاستقرار ليس أمراً دائماً..

لأن اسمه استقرار .. يعني أنه أمر طارئ وزئبقي لا يستقر..

إذا قسنا حجم هذا الوجود وعمره ستكون حتى حياتنا أمراً طارئاً!!

ربما أن حياتنا ليست إلا (عُطلاً طارئاً في جهاز العدم) !!

هذا كلام كبير، أحياناً أخشى أن أخوض في مثل هذه الأفكار حتى لا تصيبني طعنة اللاجدوى..

نحن نعيش في مدار اللاجدوى منذ أن كنا مجرد شهقات في ليالي آبائنا..

تذكرتُ الآن رواية لسليم بركات تطرح مثل هذا الأمر، اسمها (فقهاء الظلام)..

هي أولى رواياته في بداية الثمانينات، تحكي عن شخص يولد وينمو ويموت في نفس اليوم.. يأتي لهذه الحياة حاملاً معه ذاكرة كبيرة، وكل ما يريده هو أن يتمكن من تجريب أكثر ما يتاح له في يوم واحد الذي هو حياته بكاملها.. يريد مثلا أن يذوق الطعام، ويريد أن يجرب الحب، وأن يجرب الدفء والكلام وكل شيء.. وفي الفصل الثاني للرواية يأتي سردٍ مختلف لذاكرة الحيوان المنوي الذي كان سبباً في ولادته.. حيوان منوي يحمل ذاكرة كبيرة ويسابق الحيوانات الأخرى ليسبق ويلقّح البويضة حتى لا تضيع ذاكرته..

هناك من يقدر أن ينبش ذاكرتنا التي حصلنا عليها مليئة بالذكريات ولم نقدر على فكِ شفرتها والنفاذ إليها..

ألا تشعرين أحياناً أن بذاكرتك ذكريات لا تخصُّك.. وأن هناك صوراً في مخيلتك لا تعرفينها.. وأسماء وأماكن لم تدخلي إليها لكنك تجدينها محفوظة بذاكرتك !!

نحن ذاكرة الوجود بكامله، ومن سيلحقنا سيحمل ذاكرتنا وما سبقها..

قلتِ ما لم أقدر على قوله.. أحياناً أحسُّ بأنني أحمل جنازة بداخلي لشخص لا أعرفه، ولا أفكر بإجراء عملية جراحية لإخراج تلك الجنازة كي لا نُدفن منفصلين..

تدهشني أفكارك هذه.. أنتَ عالمٌ خاص ومنفرد.

ليست أفكاراً، هذا ما أشعر به وأحاول أن أترجمه.. بداخلي أوراق تبحث عمّن يرتبها ويقوم بترقيمها ليستطيع قراءتها..

تغريني بأن أحمل حقيبتي ومصباحاً كشافاً وأدخل لأكتشف كهوفك ومغاراتك، قد أجد كائنات وأشخاصاً كثيرين..

ربما تجدين مقبرةً موحشةً، وجنةً مهجورةً لم يدخلها أحد.

المقابر توجد خارجنا..

بل نحن خارجها..

قد تحتاجُ لمائة عام من العزلة لتتمكن من فك الطلاسم..

خرجتُ من آخر صفحة منها وما زلتُ معزولاً..

قدرنا عزلة الروح حتىً وإن عشنا وسط حشودٍ ضاجّة وصاخبة..

هل هي ضريبة يدفعها الشاعر والمفكر !!

هي كذلك..

هي ربما آلام الخلق والاكتشاف.. نحن ننفخ من روحنا في الأشياء فتنبض بنا..

كما لو كنا نرى ما لا يراه الآخرون..

نحن كذلك..

كتبتُ ذات يوم نصاً وتحدثت فيه عن رؤيتي للكائنات وأنا محمولٌ على النعش..كنتُ أرى نفسي جنازة مرفوعة على الأيدي وأرى ما لا يراه الآخرون..

كان رأسي متجهاً إلى القبر ورجلايَ متجهتين إلى البيت، كنت أبدو كبوصلة تتزاحم فيها الأماني.. حكاياتك مع الموت كثيرةً وعميقة.. وقد بدأتُ آنسُ لهذا الموت الذي تكتبُ عنه وأراه مختلفاً عن الموت الآخر، كأنه شكلُ آخر للحياة ..

هو صديق جميل، لذلك نحاول أن نتعرف عليه كي لا يفاجئنا ذات غفلة فنصطدم به..

نعود لمسألة رؤية الكائنات.. في طفولتي كان لي أصدقاء أتخيلهم، كانوا عبارة عن أطياف صغيرة بنيّة اللون وكانت لي أحاديث كثيرة معهم، ربما حتى تجاوزت العاشرة أو أكثر كانوا دائماً معي.. مرة أخبرت أحد الأصدقاء عنهم وقال لي: ما دمتِ